عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامح العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر

د. طارق نافع الحمداني *

١ ــ تمهيد :

تعرضت عدن خلال النصف الاول من القرن السادس عشر لكثير من الضغوط الاستعمارية البرتغالية والعثمانية ــ التي استهدفت احتلالها والسيطرة عليها ، وذلك لما كانت تتمتع به من أهمية استراتيجية وتجارية . **وواجهت عدن وشعبها وحكامها هذه الضغوط باساليب مختلفة ، فأحيانا اعتمدت عدن على حصانتها الطبيعية ، وثانية أظهرت المقاومة الباسلة ، وثالثة التجأت في أحيان اخرى الى الاساليب الدبلوماسية ، وذلك بالتقارب من احدى القوتين صاحبتي الاطماع في عدن ، لابعاد خطر القوة الثانية** ، وهذه النواحي بمجموعها هي التي ستكون محط دراستنا في هذا البحث .

كانت عدن مركزا لتجارة الهند والشرق الاقصى في العصور الوسطى ، وتجارة الخليج العربي وشرق افريقيا ، سواء اكانت هذه التجارة والسلع للاستهلاك المحلي ، أم لاعادة التصدير بعد ذلك لاوربا . وعلى هذا الاساس أصبحت عدن قاعدة هامة للتجارة العربية ، وبفضلها احرز العرب سيطرة مهمة على التجارة العالمية في العصور الوسطى الى أن ظهرت قوى بحرية جديدة نزلت الى الميدان وعملت على انتزاع تجارة الشرق من أيدي العرب . وكان وصول البرتغاليين الى المياه العربية الجنوبية عند مطلع القرن السادس عشر قد جعل لعدن أهمية استراتيجية كبيرة ، خاصة وانها كانت تعتبر بمثابة القاعدة الامامية للقوى الوطنية في المنطقة ، ويمكن عن طريقها مواجهة قوات الغزو البرتغالية ، التي كانت تضع نصب عينيها الدخول الى البحر الاحمر ومهاجمة الموانى التجارية العربية هناك (١) . ولما كان **الهدف النهائي لسياسة البرتغاليين هو السيطرة التامة على التجارة الشرقية وانتزاع الموانى العربية من أيدي العرب ، فقد** أصاب عدن الكثير من تلك السياسة ، ذلك لان البرتغاليين عمدوا الى القضاء على

* مدرس بقسم التاريخ ــ جامعة بغداد .

اهمية عدن التجارية ، وزادوا من اظهار اهميتها الاستراتيجية الحربية (٢) .

كانت عدن حينذاك خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية في عهد الامير عامر بن عبد الوهـــاب الطاهري ، الذي امتد حكمه حوالي تسعة وعشريـــن عامـــا (٨٩٤ ــ ١٤٨٩/٩٢٣ ــ ١٥١٧). وقد جذبت اهمية عدن التجارية انتباه الاسر الحاكمة . ومن بينها اسرة الطاهريين ، فازداد اهتمامها بها ، فأصلحت مبانيهـــا واقامت الاسوار حولها ، وشيدت دار الجمرك لتحصيل الرسوم التي تفرض على البضائع الواردة او الصادرة ، وانشأت العديد من الدور والمخازن والاسواق ، فانتعشت عدن في أيامها انتعاشا كبيرا (٣) . **وقد وصف عدن الرحالة البرتغاليون الذين رافقوا الحملات البرتغالية في بداية القرن السادس عشر ــ بانها من أكثر بلدان العالم تجارة ، وبأن بها اكثر التجار ثراء ،** اذ كانت تفد اليها السفن العديدة من مختلف البقاع ، فكانت هذه السفن تفد اليها من جدة محملة بالبضائع الاوربية والمصرية والسورية . كما كانت السفن تفد اليها من مواني ساحل افريقيا الشرقي مثل زيلع وبربرة محملة بالمواد الغذائية او بسبائك الذهب والفضة ، ومن مواني ساحل الهند الغربي مثل ديو وكاليكوت . او مواني جزر الهند الشرقية مثـــل ملقـــا (٤) .

وبعد أن ادرك البرتغاليون هذه الاهمية التجارية لعدن ، راحوا يخططون لانهاء دورها ؟ **وأصبـــح الاعتقـــاد السائد لدى الفونسو دا البوكيرك** Alfonso de Alboquerque **(١٥٠٩ ــ ١٥١٥) ، بأن الاستيلاء على عدن هو من أهم الوسائل للقضاء على وصول التجارة الشرقية الى البحر الاحمر ،** التي كانت مـــا تزال تصل بكميات كبيرة ، وعلى ذلك صارت عدن جزءا من المخططات البرتغالية المقبلة (٥) .

وبعد وصول العثمانيين الى المنطقة ، على اثر انهيار النفوذ المملوكي فيها ، أصبح جهدهم منصبا للسيطرة على عدن أيضا ، وذلك لاهميتها الاستراتيجيـــة والتجارية ، حيث اشار النهروالي الى ذلك بقوله : **وكان العثمانيون يخشون** « ان يستولي عليها (عدن) الفرنج اللعين ، فان ثغرها في غاية الامتنـــاع والتحصين ... وانها اذا ما وقعت في أيدي الفرنج الملاعين يصعب استردادهـــا منهم لمعرفتهم برمي المدافع والمكاجل ، وحفظ الثغور والقلاع ، بخلاف العرب ، حيث لا معرفة لهم بها ، كما ينبغي لها ، وان الفرنج الملاعين اذا تمكنوا من هـــذا الثغر الحصين ، أضروا المسلمين ، ومنعوا سفائن الهند من الوصول الى بنادر الحرمين الشريفين ... » (٦) .

ان هذه الاشارة تظهر طبيعة المطامع والاهداف البرتغالية بعدن ، وكذلك الثمانية ، وهذه المطامع والاهداف هي التي جعلت من المنطقة موضع صراع بينهما ،

وجعلت العدنيين في موقف المجابهة مع كلتا القوتين .

ـ البرتغاليون وعـدن :

اصبح امر السيطرة على عدن جزءا من السياسة البرتغالية التي هدفت ايضا الى السيطرة على كل من هرمز وملقا باعتبارهما اهم مركزين تجاريـين وعسكريين يتحكمان بالتجارة الشرقية ، ولذلك ابتداوا يعدون العدة لغزو عدن ، ووضعوا الامر موضع التنفيذ لاول مرة عام ١٥١٣ (٧) .

قدم البرتغاليون الى عدن في شباط ١٥١٣ ، على راس قوة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة تحمل على ظهرها الفا وسبعمائة جندي برتغالي وثمانمائة جندي هندي ملباري ، تحت قيادة البوكيرك ، فوصلوا الى عدن في آذار ١٥١٣ (محرم ٩١٩) (٨) .

وحال وصول البرتغاليين الى عدن هاجموا المدينة ، ووضعوا السلالم على اسوارها ، فتسلقها حوالي ٢٠٠ مقاتل من البرتغاليين وبحوزتهم كميات كبيرة من المعدات ودخلوا المدينة ، وهناك دارت معركة بينهم وبين المدافعين من سكـان المدينة ، حيث دارت الدائرة فيها على البرتغاليين الذين ولوا الادبار (٩) . ويقول **با مخرمة وابن الديبع** في ذلك :

« فرجعوا منهزمين لا يلوي احد على احد ، وتكسر منهم جمع ، واخـذت دروعهم وسلاحهم ، فعرف باقيهم ان لا قدرة لهم على عدن ، واشتغلوا بتحريق ما وجدوه من المراكب في البندر (الميناء) فارتفعوا وساروا الى باب المندب ثم الى المخا ... » (١٠) .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان العدنيين ، وعلى راسهم حاكم المدينة الامـير مرجان الظافري ، قد اعدوا العدة لملاقاة البرتغاليين ، وكانت خطتهم في ذلك تقوم على اظهار عدم التعرض للبرتغاليين والتخفي في داخل المدينة ومباغتة العدو عند الهجوم (١١) . وقد اثبتت هذه الخطة نجاحها لا في اثناء هذا الهجوم فحسب ، بل وفي اثناء معاودة البرتغاليين الهجوم عليها بعد رجوعهم من البحر الاحمر فـي العام نفسه ، اذ وجدوا المدينة وقد احيطت بسور جديد وابراج عديدة ، ويظهـر بأنها قد بنيت حديثا من قبل اهل عدن تحسبا لاي عدوان برتغالي اخر (١٢) . ولم يمكن هذا الوضع البرتغاليين من تحقيق هدفهم في عدن ، بل انه كان بمثابة ضربة شديدة الى هيبتهم البحرية والعسكرية في المنطقة العربية ، لانه جاء في وقت كانوا فيه في ذروة قوتهم ايام البوكيرك .

لم يكن الفشل الذي لاقاه البرتغاليون في عدن عام ١٥١٣ ليقضي على فكرتهم

في محاولة السيطرة عليها مرة اخرى ، وذلك لان اهمية هذه المدينة استراتيجيا وتجاريا كانت ما تزال ضمن المخططات البرتغالية . وقد عهدت مهمة تنفيذ هذا الهدف للقائد البرتغالي لوبو سواريز Lopes de Sequeira خليفة البوكيرك، الذي وصل الى ميناء عدن عام ١٥١٧ (٩٢٣) في حوالي ثلاثين سفينة من نوع غراب جالبوت ، وابلغ اهلها انه جاء لمساعدتهم ضد المصريين (١٣) . وقد اشارت بعض المصادر الاوربية (١٤) ، اعتمادا على الروايات البرتغالية ، الى ان الامير مرجان لم يرحب بالبرتغاليين فحسب ولكنه قبل ان يسلمهم عدن .

بيد أن تدقيق النصوص العربية المعاصرة او القريبة من الفترة التي نقوم بدراستها ، تبين ان الامير مرجان لم يعد البرتغاليين بتسليم عدن اليهم ، وان جل ما قام به هو مقابلة البرتغاليين عند الساحل ، وموافقته على مدهم بما يحتاجون اليه من مؤن ومرشدين بحريين لقيادة سفنهم الى جدة ، وقد قبل بذلك خوفا من مهاجمتهم عدن (١٥) . ويبدو أن لوبو سواريز نفسه لم يكن قد وضع في خطته الاستيلاء على عدن اولا ، بل أجل مهاجمتها لحين عودته من البحر الاحمر ، عندما يكون قد تمكن من القضاء على الاسطول المصري الذي كان يجري اعداده في السويس (١٦) . ولعلمه بان المواقع والتحصينات الدفاعية في عدن قد تخربت بسبب ما الحقه بها المماليك من تخريب وتدمير بعد محاولتهم غزوها عام ١٥١٧ ، وهذا ما يجعلها فريسة سهلة بين يديه وقتما يشاء (١٧) . الا أن سواريز لم يكن مصيبا في تقديراته ، ذلك لان الامير مرجان على ما يبدو قد اغتنم فرصة انشغال البرتغاليين بالتوغل في البحر الاحمر فعمل جاهدا على تقوية تحصينات ميناء عدن واصلاح ما خربه المماليك ، وعندئذ اصبح واثقا من قوة مواقعه الدفاعية ، فلم يعد للاسطول البرتغالي اية اهمية بعد عودته الى الميناء (١٨) . وفي الوقت نفسه لم يقم البرتغاليون انفسهم بمهاجمة عدن بسبب ما لحق بقواتهم من خسائر ، ولعدم تأكدهم من نتائج ذلك الهجوم ، ولذلك تخلوا عن فكرة مهاجمتها والاستيلاء عليها ، فكان ذلك عين الفشل الذي مني به البرتغاليون مما تسبب في عزل سواريز من منصبه (١٩) .

ومنذ هذا الوقت فصاعدا اصبحت السياسة البرتغالية قائمة على اساس ارسال الحملات البحرية الى البحر الاحمر لمراقبة النشاطات العثمانية البحرية ومحاولة عرقلتها ، لكي لا يدخلوا معهم ميدان المنافسة في المحيط الهندي ، وقد كانت الحملة البرتغالية الى البحر الاحمر عام ١٥٢٠ بقيادة لوبز سكويرا Lopes de Sequejra نائب الملك في الهند الذي خلف سواريز ، جزءا من تلك السياسة (٢٠) .

أما بالنسبة للسياسة العدنية ، فقد اصبح موقف الامير مرجان المهادن

للبرتغاليين تقليديا للحكام في عدن حتى وقوعها في ايدي العثمانيين عام ١٥٣٨ ، وهذا الموقف وان كان لا يعني ان الامير مرجان ومن جاء بعده من الحكام كانوا مستعدين للتفريط في استقلالهم ، الا انه يظهر طبيعة السياسة التي انتهجها هؤلاء الحكام بقصد عدم الوقوع في ايدي البرتغاليين او العثمانيين على السواء (٢١) .

وعلى ضوء التغير الذي طرأ على السياسة البرتغالية بعد دخول العثمانيين مصر عام ١٥١٧ ، وتخوف البرتغاليين من نشاطاتهم البحرية ، فقد بدأت عدن تحتل مكانة خاصة في تلك السياسة ، اذ عاد البرتغاليون الى تركيز اهتمامهم بها ، فعملوا على اخضاعها لسيطرتهم خوفا من وقوعها في ايدي العثمانيين . ففي عام ١٥٢٤ فرض البرتغاليون معاهدة غير متكافئة على عدن نصت على أن تدفع عدن خراجا سنويا للبرتغاليين ، وان تفتح ميناءها امام السفن البرتغالية (٢٢) . ولكن نائب الملك في الهند الذي كان حينذاك فاسكودي غاما الشهير ، رفض اعتماد تلك المعاهدة على اساس انها لا تمثل الا جزءا يسيرا من المطامع البرتغالية في المنطقة . ولذلك فقد تعرضت عدن في عام ١٥٢٥ لضرب المدافع البرتغالية من قبل حملة برتغالية كانت في طريقها الى مصوع ، ثم جاءتها حملة برتغالية اخرى في العام التالي ولكن الرياح ابعدتها عن عدن قبل ان تحقق اي هدف للبرتغاليين في ذلك الحين (٢٣) . وهكذا توالت الضغوط البرتغالية على عدن حتى أجبر حاكمها على قبول معاهدة قاسية عام ٩٣٦ / ١٥٢٩ — ٣٠ ، وهي المعاهدة التي اعترف فيها بالسيادة البرتغالية على عدن (٢٤) . واعترف البرتغاليون بحق العدنيين في الملاحة في المحيط الهندي بشرط عدم ذهاب سفنهم الى جدة (٢٥) على ان موقف حاكم عدن ازاء البرتغاليين كان مثار غضب العدنيين ، ونقد ونقم الفقهاء والعلماء عليه . وكانت حجة هذا الحاكم دائما تقوم على انه يحرص على ابعاد المدينة عن خطر الاحتلال البرتغالي الكامل لها . ويرمي الى عدم قيام العثمانيين بمهاجمة عدن من داخل اليمن ، او من جهة البحر (٢٦) . ومع اخلاص هذا الحاكم لبلاده المتمثل بالقبض على البرتغاليين الموجودين في عدن بعد وقت قليل من رحيل الحملة البرتغالية ، وسجنهم وتسخيرهم في صناعة الاسلحة الحربية ، الا انه اظهر رغبته في الطاعة والخضوع للسلطان سليمان القانوني كما سنرى فيما بعد (٢٧) .

وهكذا ظل حكام عدن يتعثرون في سياستهم الخارجية ولم يتخذوا نهجا واضحا في علاقاتهم مع البرتغاليين والعثمانيين ، وقد كان لهذا الموقف نتائج وخيمة على عدن تمثلت اولا في قبولها لشروط البرتغاليين التعسفية ثم وقوعها تحت السيطرة العثمانية المباشرة عام ١٥٣٨ .

ومما زاد الاحوال اضطرابا في هذه الفترة المحرجة من تاريخ عدن قيام علي ابن سليمان البدوي صاحب خنفر عام ٩٥٣ (١٥٤٦ — ٤٧) بالاستيلاء على عدن

بعد ان طرد العثمانيين منها (٢٨) وقام في الوقت نفسه بالاتصال بالبرتغاليين ووعدهم بالمساعدة والسماح لهم باستعمال الموانى العدنية مقابل مساعدتهم له ضد الدولة العثمانية . وقد ارسل البرتغاليون بالفعل بعض قطعهم الحربية الى عدن غير ان السفن العثمانية القادمة من مصر ومن اليمن كانت قد سبقتهم ، وتمكنت من قتل علي بن سليمان البدوي ، والحاق الهزيمة بالسفن البرتغالية التي وصلت لنصرته عام ٩٥٥ / ١٥٤٨ (٢٩) .

وتكرر مثل هذا الحادث عام ٩٧٦ / ١٥٦٨ وذلك حينما حاول قاسم بن شويع حاكم عدن الزيدي التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين ، فاستدعى عشرين منهم الى قلعة عدن ليروا قوة التحصينات في مدينة عدن ، واتفق معهم على ان يواجهوا العثمانيين من ناحية البحر بينما يقوم هو بمنازلتهم برا ، ووافق البرتغاليون على ذلك وتعهدوا بارسال قوة بحرية لهذا الغرض . وبالفعل ارسل البرتغاليون سفنهم الى عدن ، غير ان وصول السفن العثمانية كان اسرع منهم ، وقد مكن هذا الامر العثمانيين من السيطرة على الموقف بالقضاء على قاسم بن شويع من جهة ، ومطاردة سفن الاسطول البرتغالي من جهة اخرى (٣٠) .

وهكذا ادت هذه الاتصالات التي قام بها حكام عدن الى زيادة المنافسة الاستعمارية حول هذه المنطقة بدلا من تقليلها ، كما ادت الى تعريض استقلال عدن للخطر ، سواء من جانب البرتغاليين او العثمانيين .

٣ ــ العثمانيون وعدن :

اذا كانت عدن مهمة من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية بالنسبة للبرتغاليين ، فانها احتلت نفس الاهمية في نظر العثمانيين على اساس الاعتبارين السابقين ، بالاضافة الى اعتبارات اخرى تتعلق برغبة العثمانيين في الاحتفاظ بالمناطق التي يصل اليها نفوذهم في جنوب الجزيرة العربية لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية .

الا ان عدن ظلت بعيدة عن السيطرة العثمانية المباشرة من عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وهو العام الذي استولت فيه الدولة العثمانية عام ١٥١٦ على مصر ، وحتى عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م وهو العام الذي استولى فيه العثمانيون على عدن ، حيث بدأت المنطقة تدخل فعليا ، في استراتيجية الدولة العثمانية (٣١) . ولكن **لماذا تأخر وصول العثمانيين الى عدن حتى العقد الرابع من القرن السادس عشر رغم دخولها ضمن المخططات العثمانية ؟** للاجابة عن هذا السؤال لا بد من معرفة بداية الاهتمامات العثمانية بالمنطقة وكيفية تطورها ، والاشكال والصور التي اتخذتها .

الواقع ان سبب تأخر العثمانيين في ارسال حملة كبيرة الى عدن وجنوب

الجزيرة العربية حتى عام ١٥٣٨ يرجع الى اتساع الدولة العثمانية ، والى انشغالها في جبهات حربية متعددة ، سواء في الشرق او اوروبا . غير ان امتداد النفوذ العثماني الى مصر ، بعد قضائهم على دولة المماليك ، جعلهم يدركون اهمية البحر الاحمر والمحيط الهندي كطريق للتجارة الشرقية ، كما **انهم ورثوا العبء الثقيل الذي كان يتحمله المماليك بشأن الوقوف في وجه الخطر البرتغالي في هذه المناطق ، لا سيما وان القوات البرتغالية كانت قد حاصرت السفن العربية — الاسلامية ومنعتها من الوصول الى مصادر تجارتها في الشرق ، وعاثت في الموانى العربية — الاسلامية تخريبا واحراقا ، واقامت الحصون المهمة في المنطقة من أجل اغلاق المنافذ الرئيسية للتجارة الشرقية عبر الخليج العربي والبحر الاحمر ، وعملت على تجريد العرب من اي دور في تلك التجارة** (٣٢) . الا ان نشاط العثمانيين في هذه الفترة المبكرة ورغم ضخامة هذه المسؤوليات في البحار العربية الجنوبية كان يتسم بالضعف ، ولا يتناسب مع خطورة الوجود البرتغالي هناك .

وليس معنى هذا ان العثمانيين لم يكن لهم اي وجود في الجنوب ، فقد اعترف مماليك اليمن بخضوعهم للدولة العثمانية ، منذ ان وصلتهم الانباء بانتصار السلطان سليم الاول على المماليك في مصر عام ٩٢٣ (١٥١٧م) . اما في عدن فيشير بومخرمة الى « ان الامير مرجان ، حاكم المدينة ، قد قام بارسال كتاب على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب — الذي كان قد قتل حينئذ — الى السلطان سليم (في اسطنبول) ، وهو يشتكي فيه من اعمال حسين الكردي وسلمان الرومي وقواتهما، ومن اعمال الخراب والتدمير التي وقعت في اليمن عامة ، ثم اعتذر عن موقفه المهادن مع البرتغاليين (٣٣) . وقد ارسل الامير مرجان هذا الكتاب على يد مبعوثين من قبله ، وسافر هذان المبعوثان الى الحجاز عن طريق البحر ، ومن ثم الى مصر . وقد وصلا الى اسطنبول فعلا فرحب بهما السلطان سليم ، الا ان الرسولين لقيا مصرعهما في الطريق قبل عودتهما الى اليمن (٣٤) . وبغض النظر عن مصير هذين الرسولين ، الا ان الامر يشير الى ان الامير مرجان ، قد استخدم مع العثمانيين نفس الاسلوب الذي اتبعه مع البرتغاليين وهو اسلوب اللين والمهادنة رغم ان النفوذ العثماني لم يكن قد وصل بعد الى تلك المناطق .

كما حدث من حاكم عدن ما يماثل هذا الامر في عام ٩٣٤هـ (١٥٢٧ — ١٥٢٨م) اذ وافق على عقد معاهدة مع العثمانيين الموجودين في اليمن « اعترف فيها بان يقرأ الخطبة باسم السلطان العثماني ، وان يجعل اسمه على النقود ، وان يدفع نصف العشور المتأتية من تجارة الهند » (٣٥) . ومع اننا لم نجد اي تطبيق عملي لهذه المعاهدة ، الا انها تشير مرة اخرى الى طبيعة السياسة التي درج عليها حكام عدن . وفي عام ٩٣٧هـ (١٥٣٠ — ١٥٣١م) بعد ان فرض البرتغاليون معاهدة جائرة على عدن ، رفضها الشعب العدني وحاكمه بسرعة بعد مغادرة البرتغاليين المنطقة

« قام حاكم عدن بالكتابة الى السلطان سليمان القانوني يخبره بالدخول في طاعته » (٣٦) . وكان ذلك على ما يبدو نكاية بالبرتغاليين وحتى يقوي من جانبه اذا ما عادوا الى مهاجمة عدن . ولكن اليس من الممكن ان يكون العثمانيون قد اتخذوا من هذه المواقف ذريعة لمد نفوذهم الى عدن ، اعتمادا على الاعتراف المسبق من حاكم المدينة بالتبعية الاسمية للعثمانيين ، كما حدث بالنسبة للبصرة والقطيف والاحساء عندما قدمت الولاء للسلطان سليمان القانوني بعد دخوله العراق عام ١٥٣٤ .

ومع تقديرنا للسبب او الاسباب التي كان يتذرع بها حاكم عدن من اجل هذه المراسلات ، الا ان مجريات الاحداث تثبت انه لم يقدر تماما طبيعة الصراع والمنافسة الدائرة بين البرتغاليين والعثمانيين التي بدأت تطرق ابواب عدن والسواحل الجنوبية للجزيرة العربية . ففي ذلك الوقت بدأ العثمانيون ينفذون جزءا من خطتهم العامة في البحر الاحمر والتي تهدف الى مواجهة البرتغاليين هناك، كما انهم بدأوا يمدون نفوذهم المباشر الى اليمن وسواحلها الجنوبية ، وعززوا ذلك بارسال عدد من الحملات البحرية في عام ٩٣٢هـ (١٥٢٦م) وعام ٩٣٧هـ (١٥٣٠م — ١٥٣١م) (٣٧) . ولكن كان من البديهي الا تقف جهود العثمانيين في البحر الاحمر عند هذا الحد ، بخاصة وان النفوذ العثماني حينذاك امتد الى سواحل الخليج العربي الشمالية فاصبحوا بذلك وجها لوجه امام البرتغاليين ، وتطلب الامر من العثمانيين اتخاذ موقف مماثل في المياه العربية الجنوبية .

كان الرد السريع والحاسم الذي اتخذه العثمانيون هو حملة سليمان باشا الخادم عام ٩٤٥هـ (١٥٣٨ م) ، التي كانت اساسا موجهة ضد البرتغاليين في الهند ، الا ان الحملة المذكورة قامت بامور اخرى كثيرة في عدن وسواحل الجنوب اليمني ، استهدفت تثبيت النفوذ العثماني هناك ، سواء اكان ذلك بمعرفة وتخطيط السلطات العثمانية كما يفسره المنطق ، ام انه تم وفقا لتصرفات سليمان باشا نفسه ، كما يحلو لبعض المصادر تفسير ذلك (٣٨) . وعلى اية حال ، فقد اتخذ سليمان باشا بعض الخطوات الاولية للكشف عن مدى انقياد وطاعة الحكام العرب على طول الساحل اليمني ، وبخاصة في عدن والشحر ، للدخول في طاعة السلطان العثماني . اذ ارسل سليمان باشا رسولا من قبله على رأس وفد كبير الى كل من سلطاني عدن والشحر ، فأخذ عامر بن داود الرسالة والخلعة الخاصة به ، ولكنه ارجأ الرد على الرسالة الى حين عودة الرسول العثماني من الشحر . ويظهر ان عامر بن داود سلطان عدن قد تعمد الا يقابل الرسول العثماني عند عودته الى عدن ، بل كلف بعض اتباعه باهدائه بعض الهدايا ، ولم يترك ردا على رسالة سليمان باشا اليه (٣٩) . وكان هذا الاسلوب المراوغ جزءا من سياسة

حكام عدن المعروفة ، ولكنه تسبب في قتل السلطان عامر هذه المرة من قبل سليمان باشا بعد وصوله الى عدن مباشرة .

وكيفما كان الامر فنحن لا نستبعد وجود علاقة بين قتل السلطان عامر بن داود الطاهري وبين المراسلات الكثيرة ، التي سبق ان اشرنا اليها ، والتي كتبها حكام عدن الى السلاطين العثمانيين بشأن اعترافهم بالسيادة العثمانية . وهنا اراد سليمان باشا ان يختبر حقيقة تلك المراسلات وفيما اذا كان هؤلاء الحكام جادين في ادعاءاتهم . الا انه تبين له عدم جدية هؤلاء الحكام في مراسلاتهم . وهذا ما لمسه سليمان باشا في اعتذار سلطان عدن عن مقابلة الرسول العثماني وعدم اعطائه اي رد واضح عن اعترافه بالسيادة العثمانية ، ولهذا اتبع سليمان باشا اسلوبا غادرا في قتل السلطان عامر ، رغم انه سمح لجنود الحملة العثمانية عند وصولها السواحل اليمنية فيما بعد بدخول عدن والتزود بما يحتاجون اليه من مؤن وطعام (٤٠) .

وبعد ان انهت الحملة مهمتها في عدن والجنوب اليمني ، اتجه سليمان باشا على راس الاسطول العثماني الى الهند لمنازلة البرتغاليين هناك . ولكن يبدو ان سوء تصرفه في عدن اساء اليه كثيرا مما جعله يفشل في هذا السبيل فعاد ادراجه الى مصر (٤١) . ومن ناحية اخرى ، فنحن لا نستطيع ان ننكر جهود سليمان باشا الخادم في اخضاع السواحل اليمنية وجعلها قاعدة ارتكاز للاسطول العثماني في اي هجوم مقبل ضد البرتغاليين ، غير ان ذلك كان على حساب اخضاع عدن والشحر للسيطرة العثمانية المباشرة ، التي يبدو بأنها كانت من الاغراض الرئيسية الكامنة للحملة . فقد ذكر صاحب البرق اليماني بأن سليمان باشا بعد عودته الى اسطنبول ، تبجح كثيرا باستيلائه على مناطق عديدة في الجنوب اليمني ، فأظهر (للوزير الاعظم) انه افتتح عدن ، والحقها باقاليم اليمن ، وعظم شأن ذلك القطر الواسع ، وكبر قدر ذلك المكان الشاسع ، وسمى بهم اسامي بلدان ، وامصار وحصون كبيرة المقدار ، واسعة المجال والمدار ، وهم لا يعرفون شيئا مما ذكره ... » (٤٢) . وجاء تأكيد هذه الرغبة العثمانية بضم عدن وسواحل الجنوب اليمني الى الدولة العثمانية فيما ذكره صاحب كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام « واسفرت سفرته (اي سليمان باشا) عن اخذ زبيد وعدن » (٤٣) .

من المؤكد ان الفترة التي تلت استيلاء العثمانيين على عدن عام ٩٤٥هـ (١٥٣٨ م) كانت احرج الفترات التي مرت بالعثمانيين اذ كادوا ان يفقدوا نفوذهم هناك لمرات عديدة، وذلك بفضل الثورات التي قام بها اهل البلاد ضدهم. ففي عام ٩٥٣هـ (١٥٤٦م ــ ١٥٤٧ م) كانت ثورة علي بن سليمان البدوي ، التي استهدفت انهاء الوجود العثماني في عدن لانه تسبب في حرمان قبائل الطوالق ، التي ينتسب

اليها علي بن سليمان الطولقي نفسه ، من الموارد المالية التي كانت تحصل عليها قبيلته من حماية طرق التجارة في اراضيها ، والممتدة من عدن الى داخل اليمن .

ومما زاد في خطورة هذه الثورة بالنسبة للعثمانيين ان زعماءهـا كانوا قـد اتصلوا بالبرتغاليين بعد قيامهم بالثورة طلبـا لمساعدتهم ، وهنا تتكشف حقيقـة الاطماع والنوايا البرتغالية والعثمانية في عدن . اذ حالما تم هذا الامر سارع كل من البرتغاليين والعثمانيين الى ارسال قواتهم الى المنطقة ، فوصلت ثلاث سفن برتغالية ـ من مجموع ثلاثين سفينة كان البرتغاليون قد ارسلوها الى ميناء عدن ـ ففوجئت بوجود السفن العثمانية هناك . وكان العثمانيون قد ارسلوا بنجداتهـم البحرية والبرية الى عدن فتمكنت من الوصول الى الميناء ، وكذلك نجداتهم البرية، التي تمكنت جميعها من احباط الثورة ، قبل وصـول المساعدات البرتغالية الـى عدن (٤٤) . ولا شك ان اهمية عدن في نظر العثمانيين هي التي دعتهم الى الاسراع بارسال قواتهم الى عدن ، وهي السبب في مكافأة بـري باشا قائد الاسطـول العثماني لجهوده في استرجاع عدن الى حظيرة الدولة العثمانية (٤٥) .

وبعد هذا كله جاءت الجولة الاخيرة في الصراع البرتغالي ـ العثماني حول عدن ، متخذة من قيام قاسم بن شويع بالاستيلاء على السلطة من ايدي العثمانيين في عدن فرصة لذلك . اذ كان قاسم هذا قد تمكن من ضم اقاليم اليمن الجنوبية ، ومن بينها عدن ، بسرعة الى سلطته ، وراسل البرتغاليين بشأن الحصول علـى مساعدتهم ضد العثمانيين . وهنا ايضا رحب البرتغاليون من جانبهم بهذه الفرصة فأرسلوا بعض قطعاتهم البحرية الى عدن ، فثارت ثائرة العثمانيين لذلك وجردوا اسطولا بحريا مزودا بالآلات والعدد والعسكر بقيـادة واحد مـن ابرز قادتهم البحريين لمواجهة الموقف ، وهو الامير خير الدين القبطان المعروف بقورت اوغلي، الذي وصفه النهروالي قائلا :

« وهو ذو بأس شديد ، ومعرفة ورأي سديد ، سيما في احوال البحـر وحروبه ، وطريق اخذ الحصون وضروبه ، وكانت له تجارب في ذلك وبصائر ، وله مع الفرنج حروب وكسائر ، فتوجه في تلك الاغربة (السفن) الى عدن فـي ٩٧٦ / ١٥٦٨ » (٤٦) . وهكذا جردت الدولة العثمانية محلتها هذه بقيادة الامير خير الدين القبطان ، التي تمكنت من استرداد عدن مـن يد قاسم بـن شويع ، ومطاردة السفن البرتغالية حتى ولت فـرارا (٤٧) . وبهـذه الصورة استعاد العثمانيون نفوذهم على عدن ، وجعلوها ولاية عثمانية ، وعينوا واليا من قبلهـم عليهـا (٤٨) .

وهكذا راينا كيف بدأت المطامع البرتغالية في عدن منذ مطلع القرن السادس عشر ، وقويت بمرور الزمن حتى عام ١٥٣٨م ، حيث برزت المطامع العثمانية في

المنطقة . ومنذ عام ١٥٣٨م بدأ اهتمام العثمانيين بعدن، واصبحت على اهمية كبرى في الصراع البرتغالي ــ العثماني ، بحيث ان حملة سليمان باشا الخادم المشهورة لم تكن لتقتصر على كسر شوكة البرتغاليين في الهند ، بل وللسيطرة على عدن ، التي كانت بمثابة مفتاح البحار العربية الجنوبية في ذلك الصراع .

الهوامـــش :

١ ــ د. جلال يحيى « عدن قاعدة استراتيجية للاستعمار » **مجلة الكاتب** ، العدد ٧٥ ، السنة السابعة (يونيو ، ١٩٦٧) ص ١١٤ .

٢ ــ المصدر نفسه .

٣ ــ عبدالله بن احمد ابو محمد الطيب بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن (بريل ، ليدن ، ١٩٣٦) ج ١ ص ص ١٥ ــ ١٦ .

4– Tome Pires, The Suma Oriental of Tome Pires, an account of the East from the Red Sea to Japan, written in Malacca and India in 1512–1515, translated from Portuguese by Armando Cortesao (London, 1944), Vol. 1, pp. 15–17, see also Durate Barbosa, A Description of the Coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the 16th century, (trans.) by Henry E.J. Stanley (London, Hakl. Soc. 1866), pp. 27–28.

5– R.B. Serjeant, The Portuguese of the South Arabian Coast (Oxford, 1963), p. 16.

٦ ــ قطب الدين محمد بن احمد النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني (الرياض ، ١٩٦٧) ص ٢٣٢ حوادث عام ٩٧٥ هـ .

7– M.L. Dames "The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century", **Journal of the Royal Asiatic Society**, pt. 1 (January, 1921), pp.11–12.

ومن الجدير بالذكر ان نشاط البرتغاليين ازاء عدن قبل عام ١٥١٣م لم يكن الا نشاطا قليلا تمثل بوصول بعض السفن البرتغالية الى هذا الميناء ولكن دون ان يكون لهذا الوصول اي تأثير مهم . انظر : حمزة علي ابراهيم لقمان ،تاريخعدن وجنوب الجزيرة العربية (القاهرة ، ١٩٦٠) ص ١١٥ .

8– Pires, op. cit., p. Lxxxiv.

9– Serjeant, op. cit., Tarikh al-Shihri, p. 47.

١٠ ــ ابو الطيب عبدالله بن احمد بن علي بن ابي مخرمة ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهـــر (الترجمة الانكليزية لـــ :

L.O. Schuman, Political History of the Yemen at the beginning of the 16th century, (Amsterdam, 1960), p. 68.

عبد رحمن بن علي بن محمد ابن الديبع ، كتاب :

قرة العيون باخبار اليمن الميمون ، حققه وعلق عليه محمد بن علي الاكوع الحوالي (القاهرة ، ١٩٧٧م) ج ٢ ص ٢١٧ .

١١ ــ بو مخرمة ، قلادة النحر (الترجمة الانكليزية) ص ٦٨ ، ابن الديبع ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٦ .

١٢ ــ ابن الديبع ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ص ٢١٧ ــ ٨ ، أنظر ايضا :

H.T. Norris and F.W. Penhey, "The historical development of Aden's defences", **Geographical Journal,** Vol. Cxxi, pt. 1 (March, 1955), p. 15.

١٣ ــ بو مخرمة ، قلادة النحر (الترجمة الانكليزية) ، ص ٣١ ،

Serjeant, op. cit., Hadrami chronicles, p. 50.

14– Dames, op. cit., pp. 12-13 See also Schuman, Political history of the Yemen, p. 87.

١٥ ــ بو مخرمة ، قلادة النحر (الترجمة الانكليزية) ، ص ٣٢ ،

Serjeant, op. cit., Hadrami chronicles, p. 50;

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي الصفاني ، غاية الاماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٩٦٨م) ق ٢ ص ٦٥٨ .

١٦ ــ أحمد بو شرب « مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الاحمر والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل » ، **المناهل** ، العدد السادس والعشرون ، السنة العاشرة (مارس ، ١٩٨٣) ص ٥٣ .

17– Schuman, op. cit., p. 87.

18– Schuman, op. cit., p. 87; Dames, op. cit., p. 13.

١٩ ــ د. سعد زغلول عبد ربه ، « البرتغاليون والبحر الاحمر » ، **مجلة الدارة** ، العدد الثاني ، السنة السادسة (يناير ، ١٩٨١) ص ص ١١٧ ــ ٨ .

20– Great Britain, Naval Intelligence Division, Western Arabia and the Red Sea, (London, 1946), p. 260.

ومما يسترعي الانتباه ان هذه الحملة كانت تقصد عدن أيضا ، الا ان تغير اتجاه الرياح قد دفع قادة الاسطول البرتغالي الى التوجه الى جدة . أنظر بو مخرمة ، قلادة النحر (الترجمة الانكليزية) ص ٣٨ ، الصفاني ، غاية الاماني ، ق ٢ ص ٦٦٣ .

٢١ ــ الدكتور مصطفى سالم ، الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٢٨ ــ ١٦٣٠ (القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٤) ص ١٠٤ .

22– Naval Intelligence Division, Western Arabia and the Red Sea, p. 260.

٢٣ ــ سالم ، المصدر السابق ، ص ١١١ .

٢٤ ــ لم تشر المصادر العربية الى هذا الامر ، ولكن يمكن استنتاجه من موافقة حاكم عدن على بقاء احدى السفن البرتغالية في الميناءمع اربعين برتغاليا لضمان تنفيذ المعاهدة المذكورة . انظر :

Serjeant, op. cit., Tarikh al-Shihri, p..55.

٢٥ ــ Ibid.

٢٦ ــ Ibid.

٢٧ ــ انظر ايضا د. فاروق عمر اباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩ ــ ١٩١٨ (القاهرة ، ١٩٧٦) ص ٤٨ .

٢٨ ــ للتفاصيل أنظر : النهروالي ، البرق اليماني ، ص ١٠٠ .

٢٩ ــ الصفاني ، غاية الاماني ، ق ٢ ص ٦٩٦ ، أنظر ايضا د. محمد عيسى صالحية « التدخل العثماني في اليمن » ، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية** ، العدد الرابع والعشرون ، السنة السادسة ، (تشرين اول/اكتوبر ، ١٩٨٠) ص ص ١٠٦ ــ ٧ ،

Serjeant, op. cit., pp. 107–108.

٣٠ ــ لمزيد من التفاصيل أنظر : النهروالي ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٩ ــ ٥٣ .

31 – C.H. Imber, The Administration of the Ottoman Navy during the reign of Suleyman I, 1520–1566, unpublished Ph.D. Dissertation (Cambridge, 1970), p. 97.

٣٢ ــ ك.م. بانكياد ، آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة ، ١٩٦٢) ص ٥٠ ــ ٥٢ ، أنظر ايضا بحثنا الموسوم « دور مصر واليمن في مقاومة الغزو البرتغالي للبحر الاحمر والمحيط الهندي في اوائل القرن السادس عشر » ، **مجلة معهد البحوث والدراسات العربية** ، العدد الثاني عشر (بغداد ، ١٩٨٣) ص ص ٢١٨ ــ ٢٠ .

٣٣ ــ بو مخرمة ، تلادة النحر (الترجمة الانكليزية) ص ٣٢ .

٣٤ ــ المصدر نفسه ، ص ص ٣٢ ــ ٣ .

35– Serjeant, op. cit., p. 33

36– Serjeant, op. cit., Hadrami Chronicles, p. 59.

٣٧ ــ للتفاصيل أنظر : سالم ، المصدر السابق ، ص ص ١٣٣ ــ ٣٨ .

٣٨ ــ النهروالي ، البرق اليماني ، ص ٩١ .

39– Serjeant, op. cit., Tarikh al-Shihri, p. 77.

٤٠ ــ النهروالي ، البرق اليماني ، ص ٨٠ ، Serjeant, op. cit., Tarikh al-Shihri, p. 84, 96.

٤١ ــ النهروالي ، البرق اليماني ، ص ص ٨١ ــ ٨٥ ، أنظر أيضا : الهدانى ، غاية الاماني ، ق٢ ص ٦٨٤ .

٤٢ ــ النهروالي ، البرق اليماني ، ص ٩١ .

٤٣ ــ النهروالي ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام (بيروت ، ١٩٦٤) ص ٣٠١ .

٤٤ ــ للتفاصيل أنظر : النهروالي ، البرق اليماني ، ص ص ١٠٠ ــ ١٠٣ ، أنظر أيضا ، الصفاني ، المصدر السابق ، ق٢ ص ٦٩٦ .

45– Hajji Khalifa, The History of the Maritime Wars of the Turks, translated by James Mitchell (London, 1831), p. 71.

٤٦ ــ النهروالي ، البرق اليماني ، ص ٢٣٣ .

٤٧ ــ للتفاصيل أنظر المصدر نفسه ، ص ص ٢٤٩ ــ ٢٥٣ .

٤٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ .

دورية متخصصة في مجال الادارة العامة
ربع ســـنوية
تصدر عن معهد الادارة العامة
مسقط : سلطنة عمان ص.ب ٤٩٩٤ روي
وزارة شؤون الديوان السلطاني

★ **الاهـــداف :**

- نشر الثقافة والوعي الاداريين بين العاملين في مجالات الخدمة المدنية ودعم سبل الاتصال والتفاهم الاداري .
- عرض المشاكل الادارية المعاصرة وتحليلها وبيان انجح الحلول لها واستظهار تجارب الدول الأخرى واجراء ما يلزم في ذلك من دراسات مقارنة .
- تعميق الاتصال والتبادل الثقافي في مجال الادارة بين المعهد ومعاهد الادارة المختلفة والمؤسسات المماثلة في الدول العربية والأجنبية .

* * * * *

★ **شروط النشر :**

- مراعاة الأسلوب العلمي في طرح الموضوع ومعالجته .
- اثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس .
- تخصص مكافأة مالية لكل بحث يتم قبوله للنشر .

* * * * *

★ **الاشتراكات :**

٢٠ ريالا عمانيا أو ما يعادلها للجهات الحكومية والمؤسسات .
٨ ريالات عمانية أو ما يعادلها للأفراد .

* برقيا : معهداره / تلكس : ٣٢٧٥ أم بي ديوان / هاتف ٦٠٢٠٦٦/٦٠٢٠٦٥